

اليازجي والامثال

في مجمع البحرين

بقلم ظافر القاسمي

المثل جملة قصيرة ، قد لا تعدو كلمتين ، قيلت في موقف حاسم ، من مواقت الحرب أو السلم ، أو الاجتماع أو السياسة أو العلم ، أو غير ذلك من شؤون الحياة ، فأعجب الناس ، إما بإحكامها في موضوعها ، وإما ببلاغتها ، وإما بعمارتها ، وإما بقوتها في التعبير وأداء المعنى ، وإما بغير ذلك ، وإما بكل هذه الصفات أو ببعضها ، فسارت على ألسنتهم ، واستشهدوا بها في أقوالهم وكتابتهم . ومن هنا جاء التعبير الشائع المعروف : (المثل السائر) .

فالمثل اذن تعبير عن حال من حالات الحياة ، وان كان الغالب على منشته « الفردية » فقد ينطلق به لسان اعرابي ، أو ملك أو سوقة ، في حادث من الحوادث ، قد يكون بين اثنين ، أو في حلقة من حلقات الجماعة ، فلا يلبث أن يتناقله الناس ، فيصبح بذلك ملكاً للمجتمع كله ، يستشهد به الأفراد في كلامهم أو في كتبهم ، فاذا ما أحسن استعماله في موضعه ، كان زينة يتعلق بها القول ، وتتجمل بها الكتابة .

قال المبرد : « المثل مأخوذ من المثل ، وهو قول سائر يُقْبَه به حال الثاني بالأول »^(١) .

وقال ابن السكيت : « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه ذلك اللفظ الذي شهروه بالمثال »^(٢) .

وقال غيرهما : « سُئِنَ الْحَكْمُ الْقَائِمُ صَدَقَهَا فِي الْقَوْلِ أَمْثَالًا ، لِانْتِصَابِ صَوْرَتِهَا فِي الْقَوْلِ ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْمَثَلِ الَّذِي هُوَ الْانْتِصَابُ »^(٣) .

(١) مجمع الامثال للميداني ص ٥ - المطبعة الخيرية - ١٣١٠ هـ .

(٢) (٣) المصدر السابق .

وقال ابراهيم النَّظَّامُ : « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكتابة ، فهو نهاية البلاغة »^(١) .

وقال ابن المقفع : « اذا جعل الكلام مثلاً ، كان أوضح للنطق ، وأتقن للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث »^(٢) .
وأشاد أبو هلال العسكري ، وهو من أعلام القرن الرابع الهجري ، في مقدمة كتابه (جبهة الأمثال) بالمثل وأثره ، فقال :

« رأيت حاجة الشريف الى آداب اللسان ، بعد سلامته من اللحن ، كحاجته الى الشاهد والمثل ، والشذرة والبذرة ، والكلمة السائرة ، فان ذلك يزيد المنطق تفضيلاً ، ويكسبه قبولاً ، ويجعل له قدراً في النفوس ، وحلاوة في الصدور ، ويدعو القلوب الى وعيه ، ويبعثها على حفظه . . . ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام ، وتدخل في جل أساليب القول ، اخرجوها في اوقاتها من الالفاظ ، ليخف استعمالها ، ويسهل تداولها ، فبني من أجل الكلام وأنبله ، وأشرفه وأفضله ، لقلة ألقاظها ، وكثرة معانيها ، ويسير مؤنتها على التكلم ، مع كثير عنايتها ، وجسيم عائدتها . ومن عجائبها أنما مع إعجازها^(٣) تعمل عمل الأخطاب ، ولها روعة اذا برزت في أثناء الخطاب . والحفظ مؤكل بما راع من اللفظ ، وبدور من المعنى . والأمثال نوع من العلم ، منفرد بنفسه ، لا يقدر على التصرف فيه الا من اجتهد في طلبه ، حتى أحكمه ، وبالغ في التماسه حتى أتقنه . . . وانما يحتاج في معرفتها ، مع العلم بالقرب ، الى الوقوف على أصولها ، والاحاطة بأحاديثها ، ويكفل لذلك من اجتهد في الرواية ، وتقدم في الدراية . . . وقد علم أن كل من لم يُعِنَّ بها من الأدباء ، عتاية تبلغه أقصى غايتها ، وأبعد نهايتها ، كان منقوصاً في الأدب ، غير تم الآلة فيه ، ولا موفور الحفظ منه . . . »^(٤) .

وقد يكون المثل واضح المعنى ، سهل الالفاظ ، بين الدلالة ، فلا يحتاج

(١) والمصدر السابق .

(٢) كذا في الاصل ولعلها : ايجازها .

(٤) هامش ص ٣ - ٤ من مجمع الامثال المشار اليه آنفاً .

فهو الى أي ايضاح . وقد يكون مفهوماً من القرائن ، وان كان غير واضح الالفاظ . وقد يكون غريباً ، فلا يمكن أن يستدل على معناه ، الا بالرجوع الى كتب الأمثال ، ان كان من الأمثال الفصيحة ، أو الى الحفاظ من الناس اذا كان من الأمثال العامية .

ذلك أن المجتمعات كافة ، على اختلاف أمصارها وأعصارها ، قد عرفت « المثل » وعُتبت به . ولتتنا العربية ، ما زالت حتى اليرم لتتين ، فصحي وعامية ، فكما عرف المجتمع العربي المثل الفصيح ، المدون في الكتب ، عرف كذلك الأمثال العامية ، التي آملتها تجارب الحياة ، فأضحت جزءاً منها . فأما الفصيح ، فثابت لا يتغير ، يعرفه المثقفون في البلاد العربية كلها دون استثناء ، ومن جهله أسكنه الترف عليه . وأما العامي فقد يختلف بين بلد وآخر ، وفقاً للمادات والمصطلحات والأعراف والتقاليد .

لقد عرفت قبل أكثر من ثلاث وثلاثين سنة مستشرقاً فرنسياً سكن دمشق فترة من الزمن ، اسمه (سوسي Saussey) ، كان يهتم بالأمثال العامية الشامية ، وكنت أجتمع اليه الساعات الطوال ، وهو يتوضح ، ويدون ، ويحاول أن يفهم المتعصي من الالفاظ العامية الدارجة ، ومعاني الامثال ، ومراضع التمثل بها^١ .

كذلك سمعت ان الصديق الاستاذ عبد الجبار جوهر ، وهو من أدباء العراق المعروفين ، وبجأئها النايبين ، قد اهتم مؤخراً بالأمثال العامية السائرة في الموصل بلده . وما أدري اذا كان قد أنجز عمله هذا ؟ وان كان قد طبعه أم لا . وقد عني العرب بالأمثال ، فألفوا لها الكتب الخاصة ، ومن أشهرها مجمع الامثال للميداني . وهو مطبوع منشور ، ونظم مضامينه شعراً أحد أدباء بيروت في القرن الماضي ، وطبع في المطبعة الكاثوليكية .

قال الميداني ، وهو من اعلام القرن السادس الهجري ، في مقدمة كتابه مجمع الامثال : « طالمت من كتب الأئمة الاعلام ، ما امتد في تعقيه نفس

(١) اتصلت بالمعهد الفرنسي بدمشق متوضحاً عن آثار هذا الرجل ، في موضوع الامثال العامية اللمشقية ، فطلعت أنه ليس هنالك أثر منها ، ولعلها ضاعت في الحادث الذي ألم به ، وأدى الى وفاته عام ١٩٣٥ .

الايام ، مثل كتاب أبي عبيدة ، وأبي عبيد ، والأصمعي ، وأبي زيد ، وأبي عمرو ، وأبي فيد . ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد ، والمفضل بن سلمة ، حتى تصفحت أكثر من خمسين كتاباً . . . » .

ثم أضاف : « وسميت الكتاب مجمع الامثال ، لاحترائه على عظيم ما ورد منها ، وهي ستة آلاف مثل ونيف ، والله أعلم بما بقي منها ، فان انفاس الناس لا يأتي عليها الخسر ، ولا تنفد حتى ينفد الصبر . . . » .^١

وقد اطلمت على كتاب خطي في الامثال ، في مكتبة الشيخ جميل الشطي^٢ ، رحمه الله ، ألفه جارا الله الزعشمري ، وسماه (المستقصى في أمثال العرب) ، وقد أعلمني أمين دار الكتب الظاهرية ، الدكتور محمد عزة حسن ، أنه لم يطبع حتى اليوم ، لا في الشرق ، ولا في الغرب ، وان نسخته الخطية متعددة .

ولست بصدد تتبع الكتب في الامثال ، وانما أردت الاشارة والتشيل ليس غيرة .

وكما كان الشيخ ناصيف اليازجي إماماً في حسن الاقتباس من القرآن الكريم . كذلك كان إماماً في حسن « التشيل » . وليس غريباً أن يُحسن اليازجي الاقتباس من كتاب الله ، لانه قد وعته الصدور ، كما وعته السطور ، منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم ، واتفق الناس في مشارق الارض ومغاربها على نصه الموحد ، وقد كان المسلمون وما زالوا يتعبدون بآياته خمس مرات في اليوم الواحد على الاقل . وانما الغريب أن يعرض اليازجي على الامثال ، في زمان لم تكن فيه المطبعة العربية قد قدمت الى القراء هذا الفيض من الكتب . فقد

(١) ص ٤ - المطبعة الخيرية - ١٣١٠ هـ .

(٢) جميل الشطي : مفتي الحنابلة بدمشق . كان فقيهاً ، فرضياً - كما كان أديباً ، شاعراً وكاتباً ، أطلعني على مراسلات بينه وبين الاستاذ الرئيس محمد كرد علي : فيها شيء من العتاب والاختصاصيات ، وما زلت اذكر انها من اعلى طبقات البلاغة ، عزف فيها عن السجع : الذي التزمه اكثر حياته : وماك فيها الى التوصل . حضرت مجالسه سنين طويلة : وانضمت من علمه وفضله . تفرّد بين أقرانه بالحس المرهف الحاد ، كما كان أديباً : سريع الغضب والتأذي . وقد أعلمني الدكتور محمد عزة حسن انه اوصى بمكتبته لدار الكتب الظاهرية : وتلك من حسناته رحمه الله .

أنجز اليازجي كتابه (مجمع البحرين) في شهر نيسان سنة ١٨٥٥ الف وثمانين
مئة وخمس وخمسين . ولم يكن ، في حدود علمي ، قد طبع حتى هذا التاريخ
أي كتاب من كتب الامثال . فاذا ظهر اليازجي على شي . منها ، فهو مخطوط ،
لا مطبوع . واذا كنا نجول الكتب التي عرفها اليازجي ، لانه لم يحدثنا عنها ،
ولا عرفنا أحد من معاصريه عنها شيئاً ، فاننا نستطيع أن نستنتج من كتابه
(مجمع البحرين) أنه قد اطلع على بعض كتب الأمثال ، فأتقن دراستها ،
وأحكم معرفة أصلها ، وحفظ نصوصها ، وأرسلها في كتابه ، ارسال الرجل
المطرب الذي رزق القدرة على الفهم والحفظ .

ويجئ اليّ ان اليازجي لم يكف بكتب الامثال ، وانما عكف على
أهات معاجم اللغة العربية ، مخطوطة أو مطبوعة ، كاللسان والتاج والصحاح
وغيرها ، فتنبع فيها ، في جملة ما تنبع ، أمثال العرب ، وتخصصهم في منشأها .
أضف الى ذلك أن كثيراً من كتب الادب التداولة ، قد ضمت بين
دفتيها كثيراً من الامثال ، وتضيراً لمعانيها ، وايضاحاً لأصلها . ولست أشك
في أن اليازجي قد استفاد ايضاً من هذا المصدر للأمثال ، بمد طول مصاحبته
لهذه الكتب ، والتنقيب بين سطورها ، وحل طلاسمها ، وتقوم ما حُرّف الشأخ
من ألفاظها ، واحتمال أذى غبار القرون الذي استقر بين أوراقها .

وانما أردت أن أنبه أبناءنا من ناشئة هذا الجيل ، الى ما صنع الرواد
الأول ، في العصور المتأخرة ، ولا سيما في لبنان ، ولم يحملوا من مشاق ،
وكابدوا من ارهاق ، واستطابوا النصب ، في سبيل لغة العرب . واليوم نرى
آلاف الكتب المطبوعة مبثوثة على قوارع الطرق ، كما نرى المكتبات العامة ،
تضم كل فريد ونفيس ، بما لا نجد لدى الوراقين ، وهي مفتحة الابواب
للخاص والعام ، فأضحى بذلك الطم ميسوراً ، والسبيل الى الثقافة منشوراً ، فإ
أحرى أبناءنا أن ينتفعوا بهذه الكنوز التي أضحت سهلة المثال ، قريبة المأخذ ،
واضحة النهج ، مشكولة المشكل ، منسرة الملتق ، مشرقة الحرف ، أنيقة
الورق ، جميلة التقديم .

ولست لأستقصي ما في (مجمع البحرين) من أمثال العرب ، فلا تكاد
تخلو مقامة من مثل أو امثال ، وانما أمثل على استشهاده بالأمثال ، لتري كيف

- أوتي هذا العبقرى القدرة العجيبة ، على التمثل بأمثال العرب . قال :
- فابتدع الشيخ من فوره ، وقال : جَدَحُ جُورَيْنٍ من سويق غيره - ص ١٣ - مثل يضرب لمن يجود من مال غيره .
- قال : قد رأيت ما لا يرى ، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَخْتَدُ القَوْمُ السُّرَى - ص ١٣ - مثل يضرب لرجاء الحُبْر بحد المشقة .
- فصرت أجوعاً من ذؤالة ، وأعطش من ثعالة - ص ١٧ - ذؤالة : علم للذئب ، وهو مثل في الجوع ، وثعالة : علم للثعلب ، وهو مثل في العطش .
- قيل : قد جاء الطيب ، فقلت : قَطَعْتُ جَجِيذَةً قَوْلَ كُلِّ خَطِيبٍ - ص ٢٥ - .
- فرأيت الأديب عند أمته ، أهْرَنَ من قَيْسٍ على عمته - ص ٢٨ - قيس : رجل من الكوفة ، زار عمته في الشتاء ، فأدخلت الكلب الى البيت ، وتركت الرجل خارجاً فمات من البرد .
- من أراد أن يعرف جُهَيْتَةً ، أو شاعر مَزِيئَةً ، فليحضر ليلع ويرى ، فان كُلَّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ القَرَا ، فعند اليه رجل وقال : أَطْرَقَ كَرْمِي ، ان الثَّعَامَةَ فِي القَرَى - ص ٣٥ -
- قالوا : كلاماً وتثراً ، فقد فرضنا لكل بيت صلة أخرى ، على أن تكتبها سطرًا فسطراً . ففعل وقال : الشَّرْطُ أَمَلِكُ ، عَلَيْكَ أُمُّ لَكُ - ص ٣٩ -
- فقال يا مولاي : لا تُطْعِمِ العَبْدَ الكُرَاعَ ، فَيَنْتَمِعَ فِي الذِّرَاعِ - ص ٤٣ -
- فندم القاضي على قضاؤه الخاسر ، وقال : هذا جَزَاءُ مُجِبِّهِ أُمِّ عَامِرٍ - ص ٤٤ - مثل يضرب على الغدر وقلة الوفاء .
- فعاد الى المقام ، وقال : صَبْرًا على بَجَائِمِ الكِرَامِ - ص ٤٨ - مثل يضرب للغادر في انتقام الكرام منه .
- قلت : قد هجمت بي على المجلس ، رقعة كَصَحِيفَةِ المُتَلَيِّسِ - ص ٦٨ -

- قال : يا بني ! أَحْلَلْهُ ، تدعو إلى السَّلمة - ص ٨٤ - معناه : الفقير يدعو الى السرقة .
- قال : شَرُّ أَهْرَءَ ذَا نَابٍ ، فمن هذا الظالم الذي لا يعرف الشُّنة والكتاب - ص ٩٩ -
- صرت أهزل من الجوزل ، واتزعج من كلبة حومل - ص ١٠٠ -
- الجوزل : فرخ الحمام قبل أن ينبت ريشه ، وحومل امرأة أجمعت كلبتها فماتت .
- فلما انتهى الى هذا البيت أن كالمريض ، وقال : حَالِ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ - ص ٢٢٥ -
- يا ابن شارب الفلق ! أَتَجْزِي جَزَاءَ بَيْتَارٍ ، ولا تخاف من العار ؟ - ص ١٦٦ -
- وقال : الله أكبر ، ان الْبُتَّانَ قد أَسْتَسَرَ - ص ١٧٠ -
- فأخذتني الحمية هنالك ، وقلت : مَاءٌ وَلَا كَهْدَاءُ ، وقتي ولا كمالك - ص ٢٢٦ -
- فناولني ما شاء ، وقال : أَتَبِعِ الدَّلْوَ الرَّشَاءَ - ص ٢٧٠ -
- وبعد فمذه فاذج من احسان اليازجي في التمثل بالامثال ، لم أفكر في انتقائها ، ولا اجتهدت في اصطفاؤها ، وانما فتحت بعض صفحات نسختي من (مجمع البحرين) ، فوجدت الاشارة الى أمثال العرب علي هامشها ، فنقلتها اليك . ولقد مر بك في مطلع هذا البحث أقوال بعض الأئمة في الامثال وخطورها ، كالبرد والنظام وابن اللقنن وابن الكيت وغيرهم . ولقد كانت براعة اليازجي موافقة لأرائهم ، ومصدقة لأحكامهم . وكما رجوتك في بحثي (اليازجي والقرآن في مجمع البحرين) أن تعود الى الكتاب لترى احسان اليازجي في الاقتباس من القرآن الكريم ، أوكد لك رجائي في أن تعود اليه لترى عبقرية في الاستشهاد بالامثال .

دمشق في الثامن من حزيران ١٩٦٣

ظافر القاسمي
نقيب المحامين